بيروت (١): رؤيةُ طالبةٍ إيرانيّةٍ مناهضةٍ للعولمة

لالِه خليلي

الشارع العربيّ والمحاولات النّظاميّة

عقب انتهاء أعمال القمّة العربيّة في بيروت مؤخّرًا، وبعد أن أَمر أرييل شارون جيشَ الدفاع الإسرائيليّ باجتياح مدن الضفّة الغربيّة وقراها ومخيّماتِ اللاجئين فيها، مدمّرًا البنى التحتيّةَ للسلطة الفلسطينيّة ومتسبِّبًا بمقتل مئات الفلسطينيِّين المدنيِّين والعسكريِّين، جاء احتجاجُ رؤساء دول الشرق الأوسط وملوكها ضعيفًا خاويًا. وعلى العكس من ذلك تفجّرت الشوارعُ في الشرق الأوسط، عامةً، باحتجاجات عارمة بَلَغَتْ أحيانًا حدَّ الصدام مع قوى الشرطة والأمن، وأدّت إلى مقتلِ بعض المتظاهرين.

كلُّ وسائل الإعلام، الأميركيّة والأوروبيّة والعربيّة، وصَفَتْ وصوَّرت الأنهارَ البشريّةَ المتدفِّقة خلف الأعلام الملوّنة ـ التي كان كثيرٌ منها أعـلامًـا فلسطينيّـة ـ وخلف يافطاتٍ تُعلن أهدافَ المتظاهرين وولاءاتهم. وقد سَمحت الاحتجاجاتُ بأن تؤوَّلَ بأشكالٍ عدّة، كما هي العادة. فمن جهة احتُفي بها لكونها عرضًا علنيّاً لقوّة المتظاهرين. ولكنْ على الجانب الآخر من الطيف ـ ولاسيّما حيث تُركِّز اللقطاتُ المأخوذةُ من زوايا غير جذّابة على رجالٍ غاضبين يَفْتحون أفواهَهم بين صرختيْن ـ اعتبَرتْ وسائلُ الأعلام الأجنبيّة المتظاهرين «مشاغبين» تتلاعبُ بهم الصحافةُ العربيّةُ في أحسن الأحوال، ويَسْتعرضون عُنفَهم البدائيَّ في أسوإها. وراح الكتّابُ الجهابذة و«النقّادُ» يكتبون عن «الشارع العربيّ» وعن آثار غضبه المزعزِعة للأنظمة العربيّة «المعتدلة.»

أنْ يلعب «الشارعُ العربيُّ» دورًا بارزًا إلى هذا الحدّ في الخطاب السياسيّ وفي النقد الإعلاميّ في الولايات المتحدة، وأن تَسْتعرضَ معظمُ الصحف العربيّة ووسائل الإعلام صُوَرَ التظاهرات وأخبارَ التظاهرات إلى هذه الدرجة الهائلة، أمران يَشْهدان على قدرة الاحتجاج الجماهيريّ ـ وإنْ جزئيّاً في أقلّ تقدير ـ على التأثير في حساباتِ ومشاغلِ صُنّاع القرار في الولايات المتحدة وفي الشرق الأوسط معًا. فمعظمُ الأنظمة المحليّة «ترخِّص» الاحتجاجَ الجماهيريّ، أو تراقبه، أو تتحايل عليه. ولهذا، فإنّ اندلاع التظاهرات والاعتصامات ومسيراتِ الشموع الصامتة، حين تَبْدأ جميعُها من دون إذنٍ رسميٍّ، تُشكِّلُ ضغطًا أيضًا على الحكومة، أو على الأطراف الأخرى التي يُوجَّه الاحتجاجُ إليها. بعضُ الأنظمة تحاول أن تكْسب شرعيّتَها المفقودةَ من خلال احتواء التظاهرات المستقلّة. والبعضُ الآخر يَسْمح بقيام التظاهرات لاعتقاده أنّها تشكِّل صِمامَ أمانٍ لإطلاق الاحتقان الشعبيّ المكبوت، مادامت هذه التظاهرات تَسْتهدف عدوّاً خارجيّاً بدلاً من السلطة المحليّة. والحال أنّ تظاهرات الاحتجاج تشير، على المدى القريب وفي غياب استفتاءات واستطلاعاتِ رأيٍ موثوقةٍ، إلى آراء مجموعات متعدِّدة داخل المجتمع. وهي على المدى البعيد ذاتُ آثارٍ غيرِ مقصودة في بعض الأحيان، كأنْ تدفع إلى التماسك (أو التنافر) الاجتماعيّ، وأحيانًا في ميادين لا علاقة لها على الإطلاق بـ «أَجَنْدة» الاحتجاج الأصليّة.

والحقّ أنّ التظاهرات الأخيرة المعادية لإسرائيل في المنطقة ـ والمعادية من ثمّ للولايات المتحدة ـ تَشْمل جميعَ الملاحظات السابقة وتَشْهد على صحّتها أيضًا. ففي غياب أنماط مشاركةٍ شعبيّةٍ مفتوحةٍ أو ديموقراطيّةٍ كان احتواءُ الأنظمة للتظاهرات واحدًا من أكثر التكتيكات وضوحًا للعيان. فمن أجل استرضاء الجماهير الفلسطينيّة الضخمة في الأردن، ومن أجل تأمينِ شرعيّةٍ سياسيّةٍ للنظام الأردنيّ عبر احتواء الاحتجاجات الشعبيّة، سارت الملكة رانيا (وهي بدورها من أصل فلسطينيّ) على رأس تظاهرة في عمّان. ولم يتمّ هناك استخدامُ التعبيرات السياسيّة للحديث عن معاناة الفلسطينيِّين في الضفّة وغزّة، بل اقتصر الأمرُ على استخدام التعبيرات الإنسانيّة وحدها. ولهذا الهدف نفسه سمحتْ أنظمةٌ خليجيّةٌ متعدّدة بجمع التبرُّعات الخيريّة للشعب الفلسطينيّ (التي قدّرتها مجلّةُ **إيكونوميست** بـ ٣٠٠ مليون دولار).

في استعراضات «التضامن» العلنيّ تلك، لم يتمّ الحديثُ عن تواطؤ الأنظمة العربيّة الصامت على مصير الفلسطينيِّين، باستثناءِ ما

فلسطين وتحرير الشارع العربيّ

حين وصل پاول إلى لبنان عمدت قوات مكافحة الشغب إلى تطويق المحتجّين ومنعهم من الوصول إلى المطار

جاء على لسان بعض الأنظمة العربيّة (كنظاميْ سوريا والعراق) التي كانت لها أسبابُها المحليّةُ الخاصّةُ لإدانة الصمت العربيّ. ولم يُسْمَحْ إلاّ نادرًا بالحديث عن أنّ استخدامَ الدول العربيّة للعقوبات الاقتصاديّة قد يكون عملاً أعظمَ فائدةً للفلسطينيّين من التبرُّعات النقديّة (وهذه ضروريّةٌ هي أيضًا بالطبع). بل على العكس ذهبت السعوديّةُ والكويتُ إلى حدِّ طمأنة الولايات المتحدة إلى أنّهما لن تَسْتخدما «سلاحَ النفط،» ولم تفكِّر الدولُ العربيّةُ التي تقيم علاقاتٍ تجاريّةً هادئةً مع إسرائيل (والتي شريكُها التجاريُّ الأساسيّ هو الولاياتُ المتحدة) بقطع تلك العلاقات مع إسرائيل أو أميركا أو بتخفيفها. بل إنّ دولة الإمارات العربيّة المتحدة، إبّان أسوإ أيام الحصار الإسرائيليّ لرام اللّه وجنين، عبّرتْ عن تصميمها على شراء طائرات بوينغ بقيمة عشرات ملايين الدولارات!

في سوريا خرقتْ سلسلةَ التظاهرات التي سَمَحَ النِّظامُ بقيامها تظاهرةٌ عفويّةٌ وغيرُ مرخَّصة خرجتْ من مخيَّمات اللاجئين الفلسطينيّين المضبوطة بدقّة. المدهش أنّ التظاهرات غير المرخَّصة لم تُقمعْ، وإنْ لم تُبْرَزْ إلى جانب الأخبار «الرئاسيّة» الأخرى في الصحافة السوريّة. والحقّ أنّ أنباء هذه التظاهرات تسرّبتْ في معظمها عبر الأقوال التي تناقلها مراقبون لم يصدِّقوا ما كانوا يرونه.

في ٧ نيسان (أبريل)، وعشيّةَ وصول كولن پاول إلى المغرب في إطار جولته المتوسطيّة المترويّة قبل أن يحطّ في القدس، تظاهر حوالى مليون شخص في الرباط ضدّ الدعم الأميركيّ لإسرائيل. غير أنّ المتظاهرين المغاربة لم يُسمحْ لهم بالتظاهر إلاّ **قبلَ** وصول وزير الخارجيّة الأميركيّ، لا أثناء وجوده هناك. وحين وصل پاول إلى الضفّة الشرقيّة من المتوسّط، عمدتْ قواتُ مكافحة الشغب اللبنانيّة، المجهَّزةُ بخراطيم المياه وقنابلِ الغاز المسيلة للدموع، إلى تطويق المحتجّين في إحدى التظاهرات الصباحيّة الباكرة التي نظّمها حزبُ اللّه على عجل وشاركَ فيها طلابُ مدارس مُضْرِبة وفلسطينيُّون من مخيّم برج البراجنة، ومنعتْهم من الوصول إلى مطار بيروت.

ثمّة دول تصدّت للتظاهرات بالعنف المنظَّم: ففي البحرين أدّى مقتلُ أحد المتظاهرين على يد الشرطة أثناء مسيرة متوجِّهة إلى السفارة الأميركيّة في ٥ نيسان (أبريل) إلى اندلاع تظاهراتٍ عنيفةٍ أخرى في المنامة. وفي مصر انتهت المظاهرات، التي لم يشاركْ فيها تقريبًا إلاّ طلاّبٌ جامعيُّون غاضبون في القاهرة وبضع مدنٍ رئيسيّة أخرى، بعنفٍ دمويٍّ إذ قُتل أحدُ الطلاّب في الإسكندريّة في ٩ نيسان (أبريل)، واستُخدمتِ الهراواتُ وقنابلُ الغاز المسيلة للدموع بكثافة على الطلاّب في القاهرة. وقد ذكرتْ بعضُ التقارير أنّ الشرطة اعتذرتْ للطلاّب عن ردّها القاسي حين أجبرتْهم على العودة إلى حَرَم جامعة القاهرة ومنعتْهم من السير إلى السفارة الإسرائيليّة. وقام الرئيس حسني مبارك، وقد شعر بالضغط الشعبيّ، برفض لقاء كولن پاول، وأدلى بتصريحٍ ناريّ (نسبيًا) ضدّ إسرائيل.

في السعوديّة هُدِّد المتظاهرون بالتوقيف الفوريّ إنْ هم اختاروا أن يَسْتعرضوا غضبَهم وإحباطَهم على نحوٍ جماعيّ في الشوارع. ولكنّ أحدَ البرامج الخيريّة جَمَعَ مبلغًا كبيرًا من المال لضحايا العدوان الإسرائيليّ الفلسطينيّين، وسُمِحَ للجرائد التي تَمْلكها الدولةُ بنشر مقالات حادّةِ النبرة ضدّ إسرائيل (وضدّ الولايات المتحدة وإنْ إلى حدّ أقلّ بكثير).

في ضوء هذه المحاولات النظاميّة من الاحتواء والاسترضاء والقمع في بلدان الشرق الأوسط المختلفة كانت تظاهراتُ بيروت، حيث الحريّاتُ المدنيّةُ ماتزال أكثرَ من نظيراتها في تلك البلدان، قد نُظِّم أكثرُها على يد منظّمات سياسيّة مستقلّة تحظى بقاعدة شعبيّة، ولم ينظّم إلاّ القليلُ منها على يد السلطة نفسها. وقد شَملت التظاهراتُ الشعبيّة تشكيلةً واسعةً من الأطراف، وباتت تحدث في كلّ يوم مع بلوغ الهجوم الإسرائيليّ على البنى التحتيّة الفلسطينيّة ذروتَه. ويُمْكن تصنيفُ احتجاجات بيروت كالتالي: اعتصاماتٌ وحملُ شموع، حملاتُ مقاطعة بضائع، مسيراتٌ وتجمُّعاتٌ، وتظاهراتٌ عنيفة.

بيروت (١): رؤيةُ طالبة إيرانية مناهضة للعولمة

أشكال التضامن في بيروت

فأمّا الاعتصامات وحملُ الشموع فكانت قد بدأتْ قبل القمّة العربيّة بزمن طويل (وذلك بحمل شموع في ساحة الشهداء في ٢٢ آذار، ومن جديد أمام مقرّ الأمم المتحدة في ٢٩ آذار أيضًا) واستمرّت منذ ذلك الحين. وثمّة حَمْلٌ للشموع جرى في كنيسة في محيط شارع الحمراء في بيروت الغربيّة، واستَقْطب نساءً فلسطينيّاتٍ من مخيّمات اللاجئين؛ وهو ما أطلق المجالَ لاتّحادٍ جديدٍ بعضَ الشيء، جمَعَ بين لبنانيّين ومسيحيّين فلسطينيّين من الطبقتَيْن الوسطى والعليا من جهة، ومسلمين أقلَّ ثراءً قادمين من مخيّماتٍ بعيدةٍ عن شارع الحمراء بُعْدَها عن القمر من جهة ثانية.

إلى جانب الاعتصامات الظَّرْفيّة التي تَطْلع عفويّةً احتجاجًا على الدعم الأميركيّ لإرهاب الدولة الإسرائيليّة، ثمّة اعتصامان متواصلان يستحقّان تنويهًا خاصًاً. الأول بدأ في ٢٩ آذار (ومازال مستمراً حتى تاريخ كتابة هذا المقال) حين قامت مجموعةٌ من الطلاّب المستقلّين واليساريّين باحتجاج سلميّ أمام مبنى الأمم المتحدة في الوسط التجاريّ من العاصمة، ثم انتقل هذا الاحتجاجُ إلى ساحة الشهداء بطلب من القوى الأمنيّة اللبنانيّة. وعلى مرأًى من هذه القوى تَعَهّد الطلاّب الناشطون ـ الذين كانوا يَحْتمون من مطرِ أول نيسان الشديد بِخيَم نُصبتْ على عجل ـ أن يواصلوا احتجاجَهم حتى يُوقفَ جيشُ الدفاع الإسرائيليّ حصارَه لبلدات الضفّة الغربيّة. ونَصَب المحتجّون لوحًا إعلانيًا خشبيًا، وَضَعوا عليه قصاصاتٍ من الجرائد والمجلات، وإعلاناتٍ عن نشاطات قادمة. كما عَرضوا أعمالاً فنيّةً وصورًا فوتوغرافيّةً رسمها أو التقطها أطفالٌ فلسطينيُّون من مخيّمات اللاجئين في لبنان. وقد استقطب هذا الاعتصامُ زياراتٍ قام بها سياسيُّون (مثل وليد جنبلاط)، وناشطون يساريُّون معروفون (مثل ليلى خالد، التي حازت شهرةً عالميّةً بسبب خطفها طائراتٍ في أوائل السبعينيّات باسم الجبهة الشعبيّة لتحرير فلسطين)، وعدةُ مغنّين وممثّلين وفنّانين قاموا بعروض ومهرجانات عفويّة حول مكان الاعتصام. غير أنَّ الطلب الذي تقدّم به الطلاّب إلى بلديّة بيروت بهدف السماح لهم بنصب خيمة في الساحة نفسها ـ من أجل عرض أفلام وإقامة مهرجانات فنيّة ـ ضاع كما زُعِم في المتاهات البيروقراطيّة لبلديّة بيروت. وبعد يومَيْن على «ضياع» هذا الطلب، سُمح لحزب اللّه بنصب خيمة ضخمة في المكان نفسه، وعلى شكل مسجدِ الصخرة، مع عَلَمٍ للحزب، إلى جانب علم فلسطين ويافطاتٍ تُعْلن «الموتَ لأميركا.»

وأمّا الاعتصام الثاني المتواصل فجرى أمام مبنى الأمم المتحدة، وفي خيمةٍ أرفعَ مستوًى من سابقتها، وحضره عدد من رؤساء المنظّمات غيرِ الحكوميّة المحليّة العاملة في مجال حقوق الإنسان، ولاسيّما تلك التي تَعْمل مع الفلسطينيّين. وقد تميّز هذا الاعتصامُ بشطارته الإعلاميّة، إذ جَلَبَ نشطاءُ هذه المنظّمات أطفالاً لقراءة الرسائل والقصائد، ودعوْا مصوّرين وصحفيّين وسياسيّين إلى مشاركتهم.

أمّا حملاتُ مقاطعة البضائع الداعمة للاقتصاد الإسرائيليّ فقد بدأتْ بحملة طلابيّة على حَرَم الجامعات، وانتشرت انتشارَ النار في الهشيم، لتغدو أعمالَ عصيان مدنيّ. وقام ناشطون سلميُّون بإغلاق بضعة مطاعم لبيرغر كِنْغ وماكدونالدز بمجرّد دخولهم إليها، وتطويقِهم منضدةَ المحاسبة في الداخل، وسدِّهم الداخلَ في الخارج. وقد تلقّت هذه الحملةُ دعمًا إضافيًا حين اجتمع أساتذةُ الجامعة الأميركيّة في بيروت وموظّفوها وطلبوا من إدارة الجامعة سَحْبَ تعويضات الموظّفين من شركاتٍ يَمْلكها إسرائيليُّون وكانت جزءًا من صندوق الاستثمارات. وفي عدّة مخيّمات فلسطينيّة في لبنان، تمّ تجميعُ علب سجائر أميركيّة وإحراقُها في محارق ضخمة. وقد أوردتْ **فايننشال تايمز** في نهاية نيسان (أبريل) أنّ عددًا كبيرًا من البائعين بالمفرّق في لبنان تحدّثوا عن هبوطٍ في مبيعات السجائر الأميركيّة. ودَعَمَ العلاّمة السيّد محمد حسين فضل اللّه، وهو واحدٌ من أهم مراجع الشيعة في لبنان، هذه الجهودَ حين دعا علنًا إلى مقاطعة البضائع الأميركيّة.

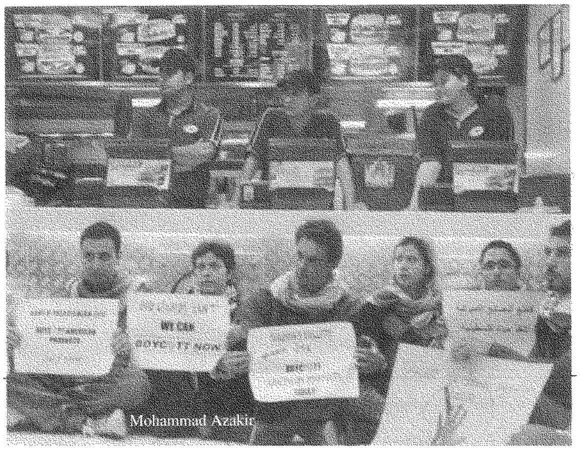

في بيروت قام ناشطون بإغلاق بضعة مطاعم لبيرغر كنغ وماكدونالدز بمجرّد تطويقهم منضدة المحاسبة

وأمّا المسيرات في بيروت فقد كانت هي أكثرَ أشكال الاحتجاج على الاجتياح الإسرائيليّ عددًا، وأبرزَها للعيان. بعضُها كان يبدأ من داخل المخيّمات الفلسطينيّة أو من محيطها، ولم تكن الجرائدُ أحيانًا تتحدّث عنها، وغالبًا ما كانت قوى الأمن اللبنانيّة تَمْنعها أو تطوّقها بشدّة. فقبل بدء أعمال القمّة العربيّة في نهاية آذار (مارس) وُضعتْ دبّاباتٌ وآليّاتٌ عسكريّة لبنانيّة إضافيّة على مداخل تلك المخيّمات، وعند بؤر التجمُّع الفلسطينيّ مثل مقبرة شهداء شاتيلا. وأحيانًا كانت قوى الأمن تَمْنع المتظاهرين في مخيّم شاتيلا من مشاركة نظرائهم من مخيّم برج البراجنة الواقع إلى جنوبه. غير أنّ حالات المنع القليلة هذه فاقتْها عددًا المسيراتُ المنظّمةُ والواسعةُ التي لم يشاركْ فيها أبناءُ المخيّمات وحدهم، بل أعضاء كثيرون من الأحزاب اللبنانيّة المختلفة أيضًا.

والحقّ أنّ التظاهرات قد كانت عرضًا حقيقيّاً للحياة السياسيّة في المجتمع اللبنانيّ. ففي كل تظاهرة كان بإمكان المراقِب غيرِ المطّلع أن يخمّن إلى أيّ تنظيم سياسيّ يُنْسب هذا العَلَمُ أو ذاك. ثمّة بعضُ التنظيمات التي تَسْهل معرفتُها من أعْلامها المرفرفة، كالحزب الشيوعيّ مثلاً، بمنجله ومطرقته. وهناك تنظيماتٌ أخرى ذاتُ رموزٍ مميَّزة، كحركة أمل بدائرتها التي ترسم اسمَ «أمل»، وكالحزبِ السوريّ القوميّ الاجتماعيّ بزوبعته الحمراء. وتُعلن تنظيماتٌ وتجمُّعاتٌ أخرى عن نفسها بأعلامها، كما هو حالُ المرابطين وجمعيّةِ المشاريع والمنبرِ الديموقراطيّ والحزبِ التقدُّميّ الاشتراكيّ والتنظيماتِ الفلسطينيّة المختلفة (مثل فتح، والجبهة الديموقراطيّة، والجبهة الشعبيّة، وحماس، والقيادة العامّة، وبرز مؤخّرًا متعاطفون مع كتائب شهداء الأقصى). وتمكن معاينةُ علم حزب الله الأصفر عن بُعْد. هذه المسيرات غالبًا ما تبدأ من نقطة انطلاق محدّدة سلفًا (الملعب البلديّ أو المتحف الوطنيّ) وتنتهي دائمًا تقريبًا أمام مقرّ الأمم المتحدة في الوسط التجاريّ، حيث يُسَلِّم الناطقُ الرسميُّ باسم التظاهرة بيانًا لأحد ممثّلي الأمم المتحدة. والمدهش أنّ الطلاب المسيحيِّين في جامعتَي القديس يوسف واليسوعيّة نظّموا مسيراتهم الخاصة دعمًا للفلسطينيّين، وتحدَّث ممثّلون عن حزب الكتائب في مسيرات وتجمُّعات مختلفة ضدّ إسرائيل.

والحال أنّ المسيرات إلى مقرّ الأمم المتحدة والتحشُّدات في شوارع بيروت، وجميعُها تناشد المجتمعَ الدوليّ التدخُّلَ، يجب تمييزُها من المسيرات التي جرت إلى السفارة الأميركيّة. فالمسيرات الأولى انتهت باستقبال المسؤول الإعلاميّ لها، الأستاذ نجيب فريجي، الذي كان يتلقّى بياناتِ الحشود نيابةً عن كوفي أنان، في حين أنّ السفارة الأميركيّة كانت تَرْفض أن تَبْعث بأيٍّ من ممثّليها لاستقبال المحتجّين حتى حين كان هؤلاء مجموعةً من المهنيِّين السِّلْميِّين تضمّ حوالى ٥٠٠ «مهندس ومحامٍ وطبيبٍ وصيدليّ» كما وصفتْهم الأخبارُ بتاريخ ٥ نيسان (أبريل)، أو تجمُّعًا يَشْمل ألفَي امرأةٍ تمّ تنظيمُه بفضل عدّة منظّمات نسائيّة غير حكوميّة وبعضِ المحازبات (كما جاء في أخبار ١٠ نيسان). بل إنّ قوى الأمن نصبتْ حواجزَ تَبْعد حوالى كيلومتر عن مبنى السفارة، مانعةً المحتجّين والمحتجّات من الاقتراب من الأسلاك الشائكة المتعدّدة أو تخطّيها. ورداً على ذلك، وفي مناسبتيْن اثنتيْن (٣ نيسان و١٢ نيسان)، قرّرتْ تنظيماتٌ شبابيّة راديكاليّة أن تسلِّط مزيدًا من الضوء على هذه الاحتجاجات، فقام عناصرُها برمي الحجارة على قوى الأمن. فعمدتْ هذه إلى استخدام خراطيم المياه الشديدةِ الضغط، وقنابلِ الغاز المسيّلة للدموع، والهرواتِ، لتفريق الطلاّب، وأعادت رميَ الحجارة على المتظاهرين. وقد نجحتْ أساليبُ الشباب العنيفة هذه في تحقيق هدفٍ واحد على الأقلّ من أهداف المحتجّين المعْلنة، وهو حَرْفُ أضواء الإعلام المحليّ وتسليطُه على الدعم الأميركيّ للعدوان الإسرائيليّ. في هذه الحالات جميعها أفاد الاحتجاجُ أَجَنْدةَ الأحزاب المشاركة، وسَمَحَ بعرض مشاعر الغضب الشعبيّة من أعمال إسرائيل، وأدّى إلى نتائج إيجابيّة لم تكن مقصودةً أيضًا. فالاحتجاجات الشعبيّة

بيروت (١): رؤيةُ طالبةٍ إيرانيّة مناهضة للعولمة

أحيانًا هي المجالُ الأوحدُ لشعبٍ محرومٍ لا يَمْلك أيَّ وسيلة إعلاميّة، من أجل التوجُّه إلى ممثِّليه السياسيِّين المفترَضين أو إلى مصادر القوّة الاقتصاديّة والسياسيّة. وبهذا، فإنَّ وجود المتظاهرين الفلسطينيِّين في المسيرات داخل بيروت أمرٌ دالٌّ فعلاً. وأن لا يُمنع الفلسطينيُّون، بشكل عامّ، من المشاركة في هذه التظاهرات، فذلك أمرٌ إيجابيٌّ، مع أنّ حضورهم غالبًا ما كان يُطْمس بسبب وجود أحزاب لبنانيّة أكثر عددًا وتجهيزًا.

لو لم تَنْتجْ عن هذه المسيرات فائدةٌ سوى إظهار الشعب اللبنانيّ تضامنَه مع الفلسطينيِّين، فذلك شيءٌ دالٌّ في حدّ ذاته. وقد سَبَقَ أن ذَكَرْنا أنّ بعضَ الشخصيّات الكتائبيّة انضمّت إلى شخصيّات من أحزاب أخرى في شجب الاعتداءات الإسرائيليّة على الشعب الفلسطينيّ، وأنّ طلابًا من بيروت الشرقيّة شاركوا في التظاهرات. غير أنّ مظاهر الدعم هذه لم تكن عامّةً: فبَعد بعض المظاهرات التي كانت مدعاةً للخلاف (في نيسان)، وظَهرتْ خلالها بعضُ الشعارات الفلسطينيّة التي تهدِّد بإحراق السفّارات إذا استُشْهد ياسر عرفات، شَجَبَ أتباعُ الجنرال ميشال عون (المنفيّ) هذه الشعاراتِ المُلْتهبةَ شجبًا شديدًا وحَذّروا الشعبَ اللبنانيّ من خطرِ أن «يتمدّد» التأثيرُ الفلسطينيّ «خارج المخيّمات.»[١]

فلسطينيّو لبنان والتضامن اللبنانيّ

وأمّا ردود الفعل الفلسطينيّة على مظاهر الدعم الشعبيّ اللبنانيّ فكانت متضاربةً بعضَ الشيء. ففي حين يعبِّر اللاجئون الفلسطينيُّون علنًا عن امتنانهم لأعمال التضامن اللبنانيّ، فإنّهم في السرّ يعلِّقون بمرارةٍ على ما يَعْتبرونه نفاقًا واسعًا صادرًا عن الأحزاب السياسيّة اللبنانيّة. فقد قالت امرأةٌ من مخيّم برج البراجنة مثلاً: «إنّهم يَدْعموننا حين نُقتل في فلسطين، ولكنّهم يَنْسَون كيف نُعامَلُ هنا في لبنان!» وكثير من الفلسطينيِّين يكرِّرون القولَ اللاذعَ التالي: «كلُّهم يحبُّون فلسطين ويَكْرهون الفلسطينيِّين!» ويبدو أنّ مخاوفهم هذه تعزّزتْ أثناء تظاهرات طلبةٍ موارنة في جامعة القدّيس يوسف، حين سُمِعَ متظاهرون يُلْقون على الفلسطينيِّين في لبنان المسؤوليّةَ الكاملةَ عن اندلاع الحرب الأهليّة في لبنان ويَرَوْن أنّ مشاركتهم الخاصة في تلك المسيرة إنّما هي محضُ عملٍ من أعمال «الشهامة.» كما أنّ الدعوات إلى بناء دولةٍ فلسطينيّة وإلى تنفيذ حقّ عودة اللاجئين الفلسطينيِّين إلى ديارهم ليست بالضرورة تعبيرًا عن رغبة «خالصة» في بلوغ العدالة؛ ففي كثير من الحالات يكون الإصرارُ على حقّ عودة الفلسطينيِّين قناعًا يُخفي كراهيةً قويّةً لـ«توطينهم» في لبنان. غير أنّ تضارب المشاعر المتبادلة بين الطرفين تبدو مسألةَ أجيال بشكل قويّ: فالفلسطينيُّون الذين يَذْكرون الحرب الأهليّة اللبنانيّة هم أقلّ تسامحًا بكثير من الناشطين الفلسطينيِّين الأحداث سنًّا الذين يُنسّقون نشاطاتِهم اليومَ مع نظرائهم اللبنانيِّين وفي ميادين مختلفة. كما أنّ اختلاف الأجيال ظهر أيضًا في «إدانة» أعمال الشغب من طرف «التجمُّع الوطنيّ للإنقاذ والتغيير» أمام السفارة الأميركيّة، وكذلك في مشاعر الانزعاج التي عبّر عنها بعضُ الفلسطينيِّين إزاء احتكاك قوى الأمن اللبنانيّة بالشبّان الفلسطينيِّين الراديكاليِّين الذين كانوا يَرْمون الحجارة أثناء المسيرات باتجاه السفارة الأميركيّة في منطقة عوكر.

أين نجحت التظاهرات وأين فشلتْ؟

لقد قدّمتْ حركاتُ الاحتجاج التي شهدتْها الأسابيعُ الأخيرةُ خارطةً سياسيّةً للبنان ما بعد الحرب الأهليّة، وهي خارطةٌ يَنْبغي بالطبع قراءتُها بدقّةٍ والتفرُّسُ في تفاصيلها بما يتعدّى الأعلامَ الحزبيّةَ والشعاراتِ السياسيّةَ. ذلك أنّ قوّة هذه المجموعة

١ ـ جريدة **النهار**، ٦ نيسان ٢٠٠٢.

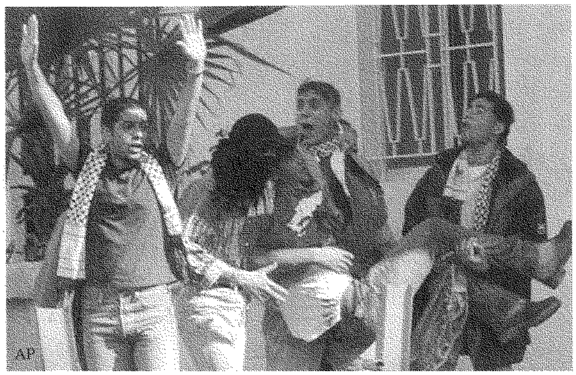

قررت تنظيمات شبابيّة راديكاليّة الوصول إلى السفارة الأميركيّة في منطقة عوْكر، فووجهتْ بالعنف

السياسيّة أو تلك من القوى المشاركة في التظاهرات يجب ألا تُقاس فقط بعدد الأعلام و«الهتّيفة» لديها، بل تُقاسُ أيضًا في قدرتها على مثابرتها في إخراج مؤيّديها إلى الشارع مجدّدًا، وبقدرتها على ممارسة التعبئة العابرة للحدود الاقتصاديّة والاجتماعيّة والجنسيّة والإثنيّة والدينيّة والمذهبيّة. كما أنّ التزام المنظّمات بمبادئها المعْلنة يُمْكن قياسُه من خلال تكتيكاتها وأساليبها أثناء تظاهراتها. وبهذا يُمْكن القولُ إنّ الحزب السوريّ القوميّ الاجتماعيّ، وحزبَ الله بصورة خاصةً، قد كانا ناجحيْن بشكلٍ مميّز من حيث حضورُهما الثابتُ والواسعُ في التظاهرات. غير أنّ تمتُّع كلا الحزبيْن بـ «حَظْوةٍ ما» من قبل القوى الإقليميّة يُساعد في زيادة صفوفهما، ويُعطيهما منبرًا للجَهْر بآرائهما لا تَمْتلكُه أحزابٌ صغيرةٌ أخرى.

هذا وقد نجح منظّمو الاحتجاجات بشكل خاصّ حين دَعَوْا طيفًا واسعًا من الآراء السياسيّة إلى أن يكون لهم تمثيلٌ في صفوفهم. غير أنّ نزعة المساواة المدهشة لدى المتظاهرين لطّخَتْها إلى حدٍّ ما بعضُ الأخطاء التكتيكيّة: فمكبّرات الصوت التي تَصمّ الآذانَ، وتصْدح بموسيقى عسكريّة تافهة، تَحْجب هتافاتِ جميع المتظاهرين الآخرين وتُضفي إيقاعًا عسكريًا على تظاهراتٍ هي في حقيقة الأمر تظاهراتٌ سياسيّةٌ وشعبيّةٌ. إنّ إذاعة هذه الموسيقى العالية في نهاية المسيرات، والتي تُقصي احتمالَ تلاوة قادة التظاهرات خُطَبًا علنيّةً، تَجْعل الجموعَ بُكْمًا لا هدف لهم ولا رأس. كما أنّ إصرار حَمَلة الأعلام في التنظيمات الإسلاميّة على التجمُّع عند تُخُوم المواكب الحزبيّة الأخرى، بحيث يَطْمسون أعلامَ ويافطاتِ هذه الأحزاب المنافسة عن عدسة المصوّرين وكاميرات التلفزيون، يَشْهد هو الآخر على هذه النزعة المعادية للديموقراطيّة. وهذه التنظيماتُ الإسلاميّة تشوّه مواقفَها المعلنة عن المساواة بين الجنسيْن حين تَنْظر بعيْن الازدراء، بل والعداءِ، إلى محاولةِ امرأةٍ الالتحاقَ بالقسم «الرجاليّ» من التظاهرة (بملحظ أنّ المتظاهرين الإسلاميّين مقسومون بحسب الجنس، بحيث تمشي النساءُ خلف الرجال). فأين وحدةُ الشعب في القضيّة؟!

كما نجحتْ تظاهراتُ بيروت في التعامل مع وسائل الإعلام إلى حدٍّ ما. فقد دَعَتْ وكالاتِ الأنباء المختلفة، فضمنتْ ظهورَ أخبارها في جميع الصحف الكبيرة المحليّة (وبعضِ الصحف العالميّة أيضًا). ومن الناحية العملانيّة نجحتْ في تنظيم المتظاهرين في الشوارع بحيث لا يكون الأثرُ البصريُّ للتظاهرات طفيفًا. كما أنّ كثيرًا من الشعارات تحدّث عن التضامن المسيحيّ ـ الإسلاميّ، وكان عددٌ كبيرٌ من اليافطات باللُّغة الإنكليزيّة؛ وهاتان حقيقتان تشيران إلى أنّ منظِّمي الاحتجاجات كانوا يتوجّهون إلى جمهورٍ عالميّ. ومن هذا المنطلق كان سيكون مفيدًا ربّما القيامُ بقدرٍ ما من الانضباط: فالمصوّرون الأجانب مثلاً يميلون إلى تركيز عدساتهم على الأطفال الذين يَرْتدون زيّاً عسكريّاً (بما ينسجم مع الكليشيهات التي تتحدّث عن «العرب الحَرْبَجيّين»)، وهم على استعداد تامّ لأن يلتقطوا ـ وبشراهة ـ صورَ أطفال مدثّرين بالأكفان ومزنَّرين بأحزمة ناسفة مزيّفة (ويَشْهد على ذلك عددُ المرات التي التقط فيها عشراتُ المصوّرين الأجانب صورةَ صبيٍّ واحدٍ، لا ثانيَ له، على هذه الشاكلة!). والحقّ أنّه بغضّ النظر عن الموقف الرسميّ الذي يتبنّاه المتظاهرون من أخلاقيّة التفجيرات الانتحاريّة وفعّاليّتها فإنّ عليهم أن يَعُوا أنّ صورة أطفال مزنّرين بالمتفجّرات لا يمكن إلاّ أن تُعزِّز المسبَّقاتِ الظالمةَ التي يَمْلكها الجمهورُ الغربيُّ عن العرب والمسلمين.

وأخيرًا، فقد تمّ اختيارُ الطريق العامّ الذي سلكتْه التظاهراتُ بحيث تنتهي معظمُها أمام مقرّ الأمم المتحدة، في حين كانت أكثرُ التظاهرات المنطلقة من الضاحية الجنوبيّة لبيروت تنتهي عند مقبرة الشهداء في شاتيلا. ولا يُمْكن المرءَ أن يَغْفل عن القيمة الرمزيّة والبصريّة للموقع الأخير في تحفيز مشاعر التعاطف مع الشعب الفلسطينيّ. كما أنّ مناشدة المجتمع الدوليّ ـ ممثَّلاً بمقرّ الأمم المتحدة ـ إدانةَ العدوان

بيروت (١): رؤيةُ طالبةٍ إيرانيّةٍ مناهضةٍ للعولمة

الإسرائيليَ تتلاءم وأفضلَ أشكال العلاقات الدوليّة (وإنْ لم تكن هذه مطبّقةً في الأغلب). ومع هذا، فلمّا كان المَوْقعان كلاهما يَفْتقران إلى ساحة عامّة واسعة، فقد راح المتظاهرون يتفرّقون عند نهاية المسيرة، فيَذْهبون إلى شوارع جانبيّة، أو إلى المواقف المكتظّة بالسيارات. وفي رأيي أنّ اختيار «ساحة الشهداء،» ذاتِ المساحات المفتوحة الشاسعة، لتكون محطّةً أخيرةً للمتظاهرين سيقدّم فائدةً أجلّ لجموع المتظاهرين، بما يَحْفظ تماسكَهم في نهاية التظاهرة ويعطي المتظاهرين إحساسًا عميقًا وبَصَرياً بأعدادهم المروِّعة وبقوّتهم. كما أنّ تجمُّعًا في هذه الساحة سيَسْتغلّ القيمةَ الرمزيّةَ لساحة الشهداء بوصفها نقطةَ التقاءٍ لشطريْ بيروت، فيَسْمح للتظاهرات بأن لا تَقْتصرَ على الاحتجاج على أعمال إسرائيل العدوانيّة بل أن تكون رمزًا للوفاق الوطنيّ أيضًا.

غير أنّ بعض نتائج حركات الاحتجاج، كما سبق أنْ ذكرنا، لا تَنْبع بالضرورة من الأهداف الأصليّة المعْلَنة. ولعلّ أوضح فائدة للتظاهرات الأخيرة هي خلقُ أطرِ عملٍ جديدةٍ للاحتجاج. فقد وَجَدَ الناشطون من مختلف الأحزاب أنفسَهم، وبما يتخطّى الحدودَ القُطْريّة والمذهبيّة والسياسيّة، يسير الواحدُ منهم إلى جانب الآخر؛ بل يكفي أنّ وجوهَ المتظاهرين وأعلامَهم غدَتْ ـ بعد أسابيع من التظاهر ـ أليفةً واحدُها للآخر. فالحال أنّ الروابط العابرة للانتماءات السياسيّة والسياسات الحزبيّة تُبنى أحيانًا دون أن نَشْعر بها. وهذه الولاءاتُ الجديدةُ قد تُعين، بدورها، على بناء «ثقافةِ احتجاج.» والدول التي تتمتّع بثقافة احتجاج (مثل إيران أو فرنسا)، حيث يَنْزل الناشطون إلى الشوارع في كل الأوقات لإسماع أصواتهم، تربّي أيضًا في الجمهور إحساسًا أعمقَ بالالتزام السياسيّ.

لقد كانت تظاهراتُ بيروت ميدانًا لتعبئة متظاهرين لم يكونوا قبل هذه التظاهرات مسيَّسين أو ملتزمين. ففي عدّة مناسبات وجدنا نساءً فلسطينيّات كنّ في السابق يُعلنّ بقوّة أنّهنّ «يكرهْن السياسة» ينخرطن الآن بشغفٍ في أعمال الاحتجاج، ويَعْتبرن التظاهرات واجبًا أخلاقيًا عاديًا بدلاً من أن يكون نشاطًا سياسيًا. والحقّ أنّ عبور السياسة على هذا النحو، من مجال السياسة في ذاته إلى عالم «الحياة اليوميّة» المحسوسة للمتظاهرين ومعاييرهم الأخلاقيّة، أمرٌ بالغُ الأهميّة بالنسبة إلى المنظِّمين إنْ قُيِّض له أن يُستخدَمَ قبل أن يحلّ فيهم تعبُ الاحتجاج.

كما أنّ توسيع عُدّة (ريبرتوار) النضال السياسيّ من خلال أساليبِ معارضةٍ جديدةٍ وخلاّقةٍ هو فائدة أخرى لأعمال الاحتجاج هذه. فللاعتصامات في خيمٍ مرتجلة، وللإغلاقات السلميّة لمطاعم أميركيّة تقدِّم الوجبات السريعة، صدى محليٌّ عميقٌ، ولكنّه صدى يَسْهل تصديرُه عبر شبكات عملٍ مباشرٍ عابرةٍ للحدود القوميّة. وربّما كانت الخطوةُ التالية برَسْم المتظاهرين في كل قطرٍ من أقطار الشرق الأوسط الخاضع للاضطهاد الإسرائيليّ والأميركيّ هي بناءُ شبكاتِ عملٍ إقليميّة وتنسيقُ النشاطات السياسيّة في ما بينها. ذلك أنّ الانعزال السياسيّ وتضييقَ أفق الاحتجاج في العالم العربيّ لا يؤدّيان إلاّ إلى تشجيع الأشكال المحافظة والاستبعاديّة للاحتجاج ولأسبابه. وأما التواصل بين المنظِّمين في مختلف هذه الأقطار، والحوار المتواصل بين الناشطين ذوي الهموم الأمميّة وأولئك المعنيِّين بالقضايا المحليّة والقوميّة، فسيسمحان بنَشْر المهارات الاحتجاجيّة، وباستخدام التجارب والموارد التي ليست متوفّرة لمنظّمي الاحتجاجات المحليِّين. وبهذا سيَسمح توسيعُ ميدان الاحتجاج، وبطرق محسوسةٍ وغيرِ محسوسة، بتعبئة الجماهير التي جَعَلَتْها عقودٌ من الكبْت والظلمِ والفقرِ المتزايدِ تبدو منعزلةً وخاملة.

بيروت

لالِهْ خليلي

كاتبة إيرانيّة شابّة. طالبة دكتوراه في جامعة كولومبيا (نيويورك). ناشطة في مناهضة العولمة. تقيم حاليًا في بيروت.